لكل مجـال تعمل فيـه، وتـؤدي وظيفتها كاملة في حدوده، فإذا أريد بها الخروج عن هذا المجال ضلت وأضلت. وكذلك شأن العقل وهو حاسة الإدراك له مجاله المحدود الذي يعمل فيه ويدرك حقائق الأشياء في محيطه، فإن أبى إلا أن يركب متن الشطط ويستوي على ظهر الغرور، انزلق إلى ظلمات الضلال وتقطعت به إلى الحقيقة الأسباب .

ولسنا نريد بهذا أن نمسك العقل عن التفكير والبحث في التعرف إلى الله، فهو الطريق الطبيعي إليه، وإنما نريد أن ينهج العقل نهجاً قاصداً في البحث عن الله فلا يندفع وراء الخيالات والفروض، ولا يشتط في التطلع إلى ما فوق طاقته، وليعترف بقصوره عن إدراك الحقيقة وعجزه عن تناولها، وليرجع إلى القلب يطلب عنده الاطمئنان والسكينة)) [1].

5-يقول الشيخ سيد سابق ((إن العقل البشري مهما كان مبلغه من الذكاء وقوة الإدراك قاصر غاية القصور وعاجز غاية العجز عن معرفة حقائق الأشياء. فهو عاجز عن معرفة النفس الإنسانية ومعرفة النفس لا تزال من أعقد مسائل العلم والفلسفة. وهو عاجز عن معرفة حقيقة الضوء، والضوء من أظهر الأشياء وأوضحها. وعاجز عن معرفة حقيقة المادة، وحقيقة الذرات التي تتألف منها، والمادة ألصق شيء بالإنسان.

ولا يزال العلم يقف عاجزاً أمام كثير من حقائق الكون والطبيعة، لا يستطيع أن يقول فيها الكلمة الأخيرة.

---

1 (?) العلم يدعو إلى الإيمان (25) .

قـــــال العلامة الفلكي المشـــــهور (كاميل فلامَرْيــون) في كتابه (القــوى الطبيعية المجهولــة): ((نرانا نفكر، ولكن ما هو الفكــر؟ لا يســتطيع أحد أن يجيب على هذا السؤال. ونرانا نمشــي، ولكن ما هو العمل العضلي؟ لا يعــرف أحد ذلــك، أرى أن إرادتي قوة غير مادية، وأن جميع خصائص نفسي غير مادية أيضاً، ومع ذلك فمتى أردت أن أرفع ذراعي، أرى أن إرادتي تحــرك مــادتي، فكيف يحــدث ذلــك، وما هو الوسيط الذي يتوسط للقوى العقلية في إنتاج نتيجة مادية ؟ لا يوجد من يســتطيع أن يجيبــني عن هــذا أيضاً، بل قل لي : كيف ينقل العصب البصــري صــور الأشــياء إلى العقــل؟ . وقل لي كيف يــدرك العقل هــــذا؟ وأين مســــتقره؟ . وما هي طبيعة العمل المخي؟ . قولوا لي أيها السادة (يريد الملحــدين) ... ولكن كفى كفى! فــإني أســتطيع أن أســألكم عشر ســنين، ولا يســتطيع أكــبر رأس فيكم أن يجيب على أحقر أسئلتي)) .

فــإذا كــان موقف العقل هكــذا حيــال النفس والضــوء والمــادة، وما في الكــون المنظــور وغــير المنظــور من أشــياء، فكيف يتطلع إلى معرفة ذات الباري جل شأنه، ويحاول إدراك كنهه!)). [1]

6-يقــول الأســتاذ خالد الرفــاعي ((إن العقل يعتمد على ما تمــده به الحــواس من مــادة أولية وعلى ما أودع فيه من قوة فطرية لتمييز الأشــياء عن بعضــها البعض.. معتمــــداً على مبــــادئ أطلقنا عليها اسم المبــادئ الأوليــة، ومن ذلك نســتنتج أن مجــال عمل العقل محصور في المــادة وصــفاتها فقــط، أو بكلمة أوضح بما يصــله من إحساســات خارجية تمــده بها

---

[1] (?) العقائد الإسلامية (37) .

الحواس، لأن الحـواس لا تعطيه أحكـام العقل حيث أن ما يعتمد عليه ليس إلا ظواهر بسيطة من الكون وأن الحـواس نفسـها قد تخطئ في ما تصل إليه أو أن الطبيعة كثـيراً ما تصـور للحـواس ما هو خلاف الواقع. فمثلاً إن من أصـيب بعمى الألـوان لا يفـرق بين الألوان ولا يرى إلا اللـون الأحمر)) ((ولـذلك فإننا نسـتطيع أن نجـزم أن ما يبـنى على المحـدود فهو محـدود دومـاً، وما يبـنى على النـاقص فهو نـاقص، فمعرفة العقل لا تعطينا إلا نتـائج ضـمن المـادة، بل ضـمن ظواهرها فحسـب، نتـائج قد تكـون أحيانـاً خاطئة وغير دقيقة وناقصة)).

((إن العقل يقف في سلسلة من الأسئلة الغائبة عنه إلى حد لا يسـتطيع أن يتجـاوزه... وإلى مجـال من الكـون لن يخترقـه، وذلك لأن حواسه تتركه عند حد تعجز بعـــده من مرافقته في ســـيره الطويل لمعرفة كل شـــيء .. وللإحاطة التامة بـــه... فأنا أسـتطيع أن أعـرف كيف يشـتعل عـود من الحطب، فأرى لون النار وأشم رائحتهـا... وأسـمع حسيسـها، وأسـتطيع أن أدرك أسـباباً بسـيطة لـذلك.. ولكنـني أصل إلى حد من الأسـئلة ليس لها عنـدي جـواب مقنع إلا التسليم والعجـز، هـذا التسـليم الـذي يظهر واضـحاً في أن ذلك من صـفة الشـيء دون أن أستطيع معرفة لم كـان ذلك من صـفة هـذا الشـيء ولم يكن من صفة غيره؟ ....لم كانت نتائج الاحتراق الحرارة.. ولم تكن البرودة ؟؟! ولم اشـتعل الحطب في الدرجة المعينة له ولم يشتعل القصـدير في تلك الدرجة؟ ... ولم كـانت الرائحة من نتيجة الاحـتراق؟ كل ذلك وغيره لا يجـاب عنه إلا بما قـال الله تعـالى لنا : (**يعلمون ظـاهراً من الحيـاة الـدنيا**) فمن

هذا نعلم أن مجـال عمل العقل هو المـادة وصـفاتها وكل عمل للعقل فيما وراء ذلك إنما هو فيما وراء الحس مباشرة، لأنه عند ذلك يخترق مجاله الطبيعي ويفقد المادة الأولية التي يعتمد عليها في بحثه ذلك، ولذلك فـإن القـرآن الكـريم كـان يوجه النظر دائمـاً إلى ما يحس في الكـون، سـمائه وأرضـه، إنسـانه وحيوانه، ولم تر آية واحدة وجهت النظر لما هو وراء الحس.. فيقـول تعـالى: (**قل انظـروا مـاذا في السـموات والأرض**) .. (**فلينظر الإنسـان إلى طعامه**). (**فلينظر الإنســـان ممَّ خُلق**) الخ)).

((إن العقل محدود بالمادة وقوانينها وصـفاتها ويمكننا أن نلخص حدود العقل بالأمور التالية:

I- بالزمـان : لأن الزمـان إنما هو صـورة عن تغـير المادة.

II- بالمكان: لأن المكان صفة المادة في تحيزها .

V- وبـــالحجم والـــوزن: لأن المـــادة لا تظهر لنا إلا بهذه الصفات.

ولكن هـــذه الحـــدود كلها رغم ســـيطرتها على الإنســـان فإنه لا يمتنع عقلاً أن يكـــون وراء هـــذه الحدود قوانين أخرى تغاير ما تعودنا عليه)) [1] .

7-يقول الأستاذ أنـور الجنـدي: ((لقد أُعطي الإنسـان أمانة الحيـاة، وأُعطي العقل والقلب، ولم يكن عقله إلا جهازاً في وظيفته في حـدود المعطيـات والقـوى المختلفة، ولم يعط هـذا العقل القـدرة الكاملة على كشف كل شـــيء، أو الوصـــول إلى كنه الوجـــود وأعماق الغيب.

ولكنه أُعطي مفاتيح الحقائق عن طريق الوحي أو العلم، فأصـــبح له طريقه الواضح من خلال هـــذه

---

[1] (?) وجود الله (10-16) .

المعطيات المتاحة فإذا مضى في هذا الطريق، أضاء وأعطى، أما إذا أراد أن يمضي بالعقلٍ وحده ليكشف كل شيء، لم يجد الطريق واضحاً، وعجز عن أن يصل إلى الحقيقة.

ومن هنا كان خطر القول بقداسة العقل، أو سلطان العلم، هذه الدعوى التي حملتها الفلسفات، ورفع لواءها الفكر البشري في محاولة للاستقلال أو التجرد عن (مفاتيح) المعرفة الأصيلة التي ألقاها الحق تبارك وتعالى لخلقه عن طريق رسالات الأنبياء والكتب المنزلة)) [1] .

8-يقول الشيخ عبد الرحمن الميداني ((العقل مقيد بعالم الحس لا عمل له في الحكم على عالم الغيب (المتيافيزيك) . ذلك لأن القوة العاقلة فينا التي تجمع بين الصورة والذاكرة والمخيلة والذكاء تقوم بعملها الجبار في التحليل والتركيب، والجمع والتفريق، واستنتاج القواعد العامة والكليات، وقياس الأشباه والنظائر على بعضها، بعد أن تنقل الحواس المختلفة إلى المصورة أشرطة مشاهداتها في الكون: شريطَ المرئيات، وشريطَ المسموعات، وشريط المذوقات، وشريط المشمومات، وشريط الملموسات، وشريط الوجدانيات الداخلة في الإنسان، ثم تكون أحكامها مقيدة بحدود هذه الأشياء التي جاءتها عن طريق الحس.

وهذه القوة العاقلة فينا لا تستطيع أبداً أن تصدر أحكامها على مغيبات لم يعرض أمامها شريط مسجل عنها، لأن كل حكم تحكم به إنما تقوله متأثرةً بواقع أشرطة الحواس التي جاءتها، وقد يختلف عالم الغيب عن عالم الحس كل الاختلاف

1 (?) شبهات التغريب (185) .

فلا يمكن الحكم عليهما بالتشـــابه، والقاعـــدة الثابتة عند العلمـــاء: (أن الحكم على الشـــيء فـــرع عن تصوره).

فعــالم الغيب لا تســتطيع عقولنا أن تحكم على شيء فيه بإثبات أو نفي اسـتقلالاً ذاتيـاً، إلا أن يأتيها خبر يشهد العقل بإمكان وجوده ويصدق ناقله، وعند ذلك تسـلم بمضـمونه تسـليماً تامـاً دون مناقشة أو اعتراض)) [1].

9-يقــول الأســتاذ محمد حســين ((قد أثبتت العلــوم الحديثة – وعلم الفلك خاصــة- عجز العقل البشــري الذي لا مفر منه إلا إلى الله ولا ملجأ إلا إليه سبحانه وتعالى وأصبح تمسح المشـككين والملاحـدة بـالعلم ضرباً من الجهل أو المكابرة)) [2] .

10-ويقـــول الشـــاطبي ((إن الله جعل للعقـــول في إدراكها حـــــداً تنتهي إليه لا تتعـــــداه. ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب. ولو كانت كذلك لاسـتوت مع البـاري تعـالى في إدراك جميع ما كـان وما يكون وما لا يكون . إذ لو كان كيف كان يكــون؟ فمعلومات الله لا تتناهى . ومعلومات العبد متناهيـة. والمتناهي لا يساوي ما لا يتناهى .

وقد دخل في هــذه الكلية ذوات الأشــياء جملة وتفصـيلاً. وصـفاتها وأحوالها وأفعالها وأحكامها جملة وتفصـيلاً. فالشــيء الواحد من جملة الأشــياء يعلمه الباري تعالى على التمـام والكمـال، بحيث لا يعـزب عن علمه مثقــال ذرة لا في ذاته ولا في صــفاته ولا في أحواله ولا في أحكامــه، بخلاف العبد فـإن علمه بذلك الشيء قاصر ناقص سواء كــان في تعقل ذاته أو صفاته أو أحواله أو أحكامه، وهو في الإنسان أمر

---

1 (?) العقيدة الإسلامية (195) .

2 (?) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (2/291) .

مشاهد محسوس لا يرتاب فيه عاقل تُخرّجه التجربة إذا اعتبرها الإنسان في نفسه)) [1] .

11-قال أبو الحسن الندوي ((إن العقل وحـده عـاجز عن أداء وظيفته الطبيعية بل هو مضـــــــــــطر إلى الاستعانة بأشـياء هي أقل منه قيمـة، ففي إدراك ما لم يدركه العقل من قبـــل، يحتـــاج إلى اســـتخدام المعلومات التي حصـلت له مسـبقاً، ولا تكـون هـذه المقـدمات إلا المحسوسـات فلو حللت المعقـولات كلها تحليلاً دقيقـــــاً، وســـــمعت قصة رحلة العقل الطريفة والطويلة المدى، عـرفت أن وسـيلة العقل في اكتشـاف العـوالم الجـدد والغـوص في البحـار المجهولـة، إنما هي هـذه المحسوسـات الـتي تبـدو تافهة حقيرة، والمعلومات البدائية الـتي لولاها ولـولا ترتيبها ترتيباً خاصاً، لما وصل العقل إلى هذه النتائج الخطيرة ذات القيمة الكبيرة، فحيث تشلُّ الحــواس البشـرية، وحيث لا تكـون لـدى الإنسـان ذخـيرة من معلومات، وإذا كان في أمر على جهل تـام بمباديـه، فهنـــاك يعجز عقله عن شق الطريق إلى الأمـــام، والوصــول إلى نتيجة في هــذا الموضــوع كما يعجز أحدنا عن أن يعبر البحر من غـير سـفينة، وأن يطـير في الجو من غير طائرة.

فإن شـئت جـربت ولا تخطئك التجربـة، هب أن رجلاً ذكيـاً فطنـاً ليست له معرفة بمبـادئ العلــوم الرياضية الأولية، حتى أنه لا يعرف العدد، لا يستطيع مثل هـــذا الرجل أن يحل معضـــلة من المعضـــلات الرياضــية، ولو كــان على جــانب كبــير من الــذكاء والألمعية كـذلك من لم يكن عنـده معرفة بالأصـول الموضــوعة في علم الأقليــدس لن يســعه أن يثبت

---

[1] (?) الاعتصام (2/318) .

شكلاً من الأشكال، ولو كان هذا الرجل على قمّة من الذكاء والفطانة، كذلك إذا كان الرجل يجهل حروف لغة من اللغات وخطها، لم يستطع أن يقرأ سطراً من السطور التي كتبت في هذه اللغة، ولو صبّ ذكاءه وأمعن في القياس، فالذي لا يعرف مفردات لغة لا يستطيع أن يفهم عبارة من عبارات هذه اللغة بمجرد ذكائه أو بقوة قياسه، وعلى ذلك تقاس مبادئ كل فن وعلم)) [1].

قلت : فإذا كان العقل البشري كما رأيت من الضعف والقصور فكيف يقول عاقل بتقدمه على كلام الله وكلام رسوله فهل هذا إلا من تقديم الناقص على الكامل، والمفضول على الفاضل؟ .

الوجه الثالث: أن يقال إذا ثبت ضعف العقل البشري وقصوره عن إدراك كثير من الحقائق الثابتة فاعلم أنه لا مجال له في إدراك ذات الباري وصفاته وأسمائه وحِكَم أفعاله وأوامره ونواهيه وإنما يُتَلقى ذلك من الوحي وأما العقل فلا يقوده اجتهاده إلا لإثبات خالق لهذا الكون دون معرفة مفصلة له.

قال شيخ الإسلام ((ولا تحسبن أن العقول لو تركت وعلومها التي تستفيدها بمجرد النظر عرفت الله معرفة مفصلة بصفاته وأسمائه على وجه اليقين فإن عامة من تكلم في هذا الباب بالعقل فإنما تكلم بعد أن بلغه ما جاءت به الرسل واستصغى بذلك واستأنس به سواء أظهر الانقياد للرسل أو لم يظهر، وقد اعترف عامة الرؤوس منهم أنه لا ينال بالعقل علم جازم في تفاصيل الأمور الإلهية وإنما ينال بها الظن والحسبان)) [2].

---

1 (?) بين الدين والمدنية (15). وانظر كتاب (الإسلام والعقل) لعبد الحليم محمود، ففيه يشن حملة شديدة على العقل.

2 (?) الصارم المسلول (249) .

وقـــال الإمـــام أبو يعلى ((إن العقل لا يعلم به فرض شيء ولا إباحته ولا تحليل شــيء ولا تحريمه))[1].

وقـال الشـيخ ابن عـثيمين ((السـمعيات كل ما ثبت بالسـمع أي طريق الشـرع ولم يكن للعقل فيها مدخل وكل ما ثبت عن النـبي من أخبـار فهي حق يجب تصديقه سـواء شـاهدناه بحواسـنا أو غـاب عنا وسـواء أدركنـاه بعقولنا أم لم ندركه لقوله تعـالى : **(إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسـأل عن أصحاب الجحيم)**[2].

وقـال سـيد قطب : ((إن هنالك مجـالاً للعقل البشري معيناً في ارتيـاد آفـاق المجهـول: والإسـلام يدفعه إلى هذا دفعاً.. ولكن وراء هذا المجال المعين ما لا قدرة لهـذا العقل على ارتيـاده، لأنه لا حاجة به إلى ارتيـاده. وما لا حاجة له به في خلافة الأرض فلا مجال له إليـه، ولا حكمة في إعانته عليـه. لأنه ليس من شـأنه، ولا داخلاً في حـدود اختصاصـه. والقـدر الضروري له منه ليعلم مركـزه في الكـون بالقيـاس إلى ما حوله ومن حوله، قد تكفل الله سبحانه ببيانه لـه، لأنه أكـبر من طاقتـه. وبالقـدر الـذي يـدخل في طاقتــــه. ومنه هـــــذا الغيب الخـــــاص بالملائكة والشياطين والروح والمنشأ والمصـير .. فأما الـذين اهتدوا بهـدى اللـه، فقد وقفـوا في هـذه الأمـور عند القـدر الـذي كشـفه الله لهم في كتبه وعلى لسـان رسله. وأفادوا منه الشعور بعظمة الخـالق، وحكمته في الخلـق، والشـعور بموقف الإنسـان في الأرض من هذه العوالم والأرواح . وشغلوا طاقـاتهم العقلية في الكشف والعلم المهيأ للعقل في حـــدود هـــذه

---

1 (?) الأحكام السلطانية (19) .

2 (?) شرح لمعة الاعتقاد (59) .

الأرض وما حولها من أجـــرام بالقـــدر الممكن لهم. واستغلوا ما علموه في العمل والإنتاج وعمران هذه الأرض والقيـام بالخلافة فيهـا، على هـدى من اللـه، متجهين إليه، مرتفعين إلى حيث يدعوهم للارتفاع.

وأما الــذين لم يهتــدوا بهــدى الله فانقســموا فرقــــــتين كبـــــيرتين: فرقة ظلت تجاهد بعقولها المحــدودة لإدراك غــير المحــدود من ذاته تعــالى: والمعرفة الحقيقية المغيبة عن غــــير طريق الكتب المنــزلة. وكـان منهم فلاسـفة حـاولوا تفسـير هـذا الوجود وارتباطاته، فظلوا يتعثرون كالأطفـال الـذين يصعدون جبلاً شاهقاً لا غاية لقمته، أو يحـاولون حل لغز الوجـــود وهم لم يتقنـــوا بعد أبجدية الهجـــاء ! وكانت لهم تصورات مضحكة – وهم كبار فلاســفة – مضــحكة حقــاً حين يقرنها الإنســان إلى التصــور الواضح المســتقيم الجميل الــذي ينشـئه القــرآن . مضـحكة بعثراتهـا. ومضـحكة بمفارقاتهـا. ومضـحكة بتخلخلها . ومضــحكة بقزامتها بالقيــاس إلى عظمة الوجــود الــذي يفســرونه بهــا.. لا أســتثني من هــذا فلاسفة الإغريق الكبار، ولا فلاسفة المسلمين الذين قلــــدوهم في منهج التفكـــير. ولا فلاســـفة العصر الحــديث! وذلك حين يقــاس تصــورهم إلى التصــور الإسلامي للوجود .

فهــذه فرقــة. فأما الفرقة الأخــرى، فقد يئست من جدوى هذا الاتجاه في المعرفة. فعدلت عنه إلى حصر نفسها وجهدها في العلم التجريبي والتطبيقي. ضاربة صفحاً عن المجهول.، الذي ليس إليه ســبيل. وغــير مهتدية فيه بهــدى اللــه. لأنها لا تســتطيع أن تدرك الله! وهذه الفرقة كانت في أوج غلوائها خلال القـرنين الثـامن عشر والتاسع عشـر. ولكنها أخـذت

منذ مطلع هـــذا القـــرن تفيق من الغـــرور العلمي الجامح، على هـروب المـادة من بين أيـديها وتحولها إلى إشـعاع «مجهـول الكنه» ويكـاد يكـون مجهـول القـانون! وبقي الإسـلام ثابتـاً على صـخرة اليقين. يمنح البشر من المجهول القدر الـذي لهم فيه خـير. ويـــوفر طـــاقتهم العقلية للعمل في خلافة الأرض. ويهـيئ لعقـولهم المجـال الـذي تعمل فيه في أمن . ويهـــديهم للـــتي هي أقـــوم في المجهـــول وغـــير المجهول!» [1].

الوجه الرابع : ويكشف مجـــــال العقل ودوره في الإسـلام فيقـال: «إن دور هـذا العقل أن يتلقى عن الرسالة؛ ووظيفته أن يفهم ما يتلقـاه عن الرسـول. ومهمة الرسـول أن يبلـغ، ويـبين، ويسـتنقذ الفطـرة الإنسـانية مما يـرين عليها من الركـام. وينبه العقل الإنسـاني إلى تـدبر دلائل الهـدى وموحيـات الإيمـان في الأنفس والآفـــــاق، وأن يرسم له منهج التلقي الصحيح، ومنهج النظر الصحيح؛ وأن يقيم له القاعدة التي ينهض عليها منهج الحياة العمليـة، المـؤدي إلى خير الدنيا والآخرة.

وليس دور العقل أن يكـون حاكمـاً على الـدين ومقرراته من حيث الصـــحة والبطلان، والقبـــول أو الرفض –بعد أن يتأكد من صـحة صـدورها عن اللـه؛ وبعد أن يفهم المقصـود بهـا: أي المـدلولات اللغوية والاصـــــطلاحية للنص – ولو كـــــان له أن يقبلها أو يرفضـها- بعد إدراك مـدلولها، لأنه هو لا يوافق على هذا المدلول! أو لا يريد أن يستجيب له – ما استحق العقـــاب من الله على الكفر بعد البيـــان.. فهو إذن ملـزم بقبـول مقـررات الـدين مـتى بلغت إليه عن

[1] (?) في ظلال القرآن (6/3731) .

طريق صحيح، ومتى فهم عقله ما المقصــود بها وما المراد منها..

إن هـذه الرسـالة تخـاطب العقـل.. بمعـنى أنها توقظه، وتوجهـه، وتقيم له منهج النظر الصـحيح.. لا بمعـــنى أنه هو الـــذي يحكم بصـــحتها أو بطلانهـــا، وبقبولها أو رفضها. ومتى ثبت النص كــان هو الحكم ؛ وكـــــان على العقل البشـــــري أن يقبله ويطيعه وينفذه؛ سواء كان مدلوله مألوفاً له أو غريباً عليه..

إن دور العقل – في هــذا الصــدد – هو أن يفهم ما الذي يعنيه النص. وما مدلوله الـذي يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصـطلاح. وعند هـذا الحد ينتهي دوره .. إن المـــدلول الصـــحيح للنص لا يقبل البطلان أو الرفض بحكم من هذا العقل. فهـذا النص من عند اللــه، والعقل ليس إلهــاً يحكم بالصــحة أو البطلان، وبالقبول أو الرفض لما جاء من عند الله.

وعند هـــذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثـــير.. ســواء ممن يريـدون تأليه العقل البشــري فيجعلونه هو الحكم في صـــحة أو بطلان المقـــررات الدينية الصحيحة.. أو ممن يريدون إلغاء العقـل، ونفي دوره في الإيمان والهدى .. والطريق الوسط الصـحيح هو الــذي بينــاه هنــا.. من أن الرســالة تخــاطب العقل ليـدرك مقرراتهـا؛ وترسم له المنهج الصـحيح للنظر في هذه المقررات، وفي شـؤون الحيـاة كلهـا. فـإذا أدرك مقرراتها – أي إذا فهم مــاذا يعــني النص – لم يعد أمامه إلا التصـــديق والطاعة والتنفيـــذ.. فهي لا تكلف الإنسان العمل بها سواء فهمها أم لم يفهمها . وهي كـذلك لا تـبيح له مناقشة مقرراتها مـتى أدرك هذه المقـررات، وفق مفهـوم نصوصـها.. مناقشـتها ليقبلها أو يرفضـها. ليحكم بصـحتها أو خطئهـا.. وقد

علم أنها جاءته من عند الله. الذي لا يقص إلا الحق، ولا يأمر إلا بالخير.

والمنهج الصــحيح في التلقي عن اللـــه، هو ألا يواجه العقل مقــررات الــدين الصــحيحة – بعد أن يــدرك المقصــود بها – بمقــررات له ســابقة عليهــا، كونها لنفسه من مقولاته ((المنطقية)) ! أو من ملاحظاته المحــدودة، أو من تجاربه الناقصــة.. إنما المنهج الصحيح أن يتلقى النصوص الصحيحة، ويكون منها مقرراته هــو! فهي أصح من مقرراته الذاتيــة؛ ومنهجها أقــوم من منهجه الــذاتي- قبل أن يضــبط بموازين النظر الدينية الصحيحة – ومن ثم لا يحــاكم العقل مقررات الدين- متى صح عنده أنها من اللــه- إلى أية مقــررات أخــرى من صــنعه الخــاص!.. إن العقل ليس إلهاً، ليحـاكم بمقرراته الخاصة مقـررات الله)) [1] .

قال الشــيخ محمد قطب: ((يمنح الإســلام العقل مجــالاً واســعاً للعمل هو أوسع مجــال ســليم للعقل منحه إيــاه نظــام من النظم أو عقيــدة من العقائد وفي الــوقت نفسه يمنعه من مجـالات بعينها ويحظر عليه التفكــير فيها أو ينكر عليه حق التفكــير. وهي أمور ثلاثة: التفكير في ذات الله والتفكير في القَــدَر والتشــريع من دون الله)) ((وإذا جاوزنا هــذه الأمــور الثلاثة الــتي نصح العقل ألا يتناولها كقضــية الــذات الإلهية وقضية القدر أو منع منعاً جازماً منها كقضــية التشريع فكل المجالات الأخرى مباحة للعقل ومتاحة له بل هو – في الإسلام – مدعو إليها دعــوة صــريحة ويعتــــبر مقصــــراً إذا لم يقم بها . وهنـــاك خمسة

---

[1] (?) ظلال القرآن (2/806) .

مجـالات رئيسـية يـدعى العقل للعمل فيها في ظل الإسلام .

أولاً : في قضية الإيمان يخـاطب الإسـلام الإنسـان كلـه، بكل جـانب من جوانبـه، ويركز على الجـانب الوجداني لأن العقيدة دائماً تخاطب الوجدان وتحيى فيه وتتحرك به، ولكنه يخاطب العقل كذلك في ذات الـوقت، ويستنهضه للتفكر والتـدبر والتأمـل، لتتـآزر جوانب الإنسـان كلها للوصـول إلى الحقيقـة، حقيقة الألوهية، وما يترتب على معرفتها من التزامـات في كل مجالات الحياة والشعور والفكر والسلوك .

يخاطبه ليتـدبر في آيـات الخلـق.. خلق الكـون وخلق الإنسـان .. هل من خـالق غـير اللـه؟ (**أم خلقـوا من غـير شـيء أم هم الخـالقون. أم خلقـوا السـماوات والأرض. بل لا يوقنـون**) (**خلق السـموات بغـير عمـدٍ ترونهـا. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم . وبث فيها من كل دابة. وأنزلنا من السماء مـاء فأنبتنا فيها من كل زوج كـريم. هـذا خلق الله فـأروني مـاذا خلق الـذين من دونـه. بل الظالمون في ضلال مبين**) .

وما زال هذا التحدي قائماً.. وسيظل قائمـاً إلى أن يـرث الله الأرض وما عليهـا.. وكل محـاولات الجاهلية المعاصـرة أن تزيغ عن مجابهة التحـدي، بالقول بالمصادفة تارة، وبالخلق الذاتي تـارة، وبـأي كلام تارة أخـرى إنما هي محـاولات متهافتة لا يقبلها ((العقل)) لو تجرد للتفكر بغير ضغوط وبغير شهوات! والإسلام يخاطب العقل ليتجـرد في تفكـره، وليصل إلى النتيجة الموضوعية العلمية الـتي يـدل عليها كل ما في السـماوات والأرض من شـيء، ويتخلى عن

الهـوى الـذي يعمي وعن الكـبر الـذي يضـل.. فيجد الحقيقة بـــارزة تملأ اليقين. (**أفمن يخلق كمن لا يخلق. أفلا تـذكرون**) (**لو كـان فيهما آلهة إلا الله لفســـدتا**) (**إذاً لـــذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضـــــــــهم على بعض..**) وكما يخاطبه ليسـتيقن –بطـرق اسـتدلالاته الخاصة من اسـتقراء واســـتنباط وقيـــاس ومنطـــق.. الخ – من حقيقة الألوهية وتفرد الله بالخلق والتدبير.. يخاطبه لـيرتب على يقينه ذلك ما يســتتبعه من تبعـات.. فـإذا كـان الله متصفاً بتلك الصفات الـتي اسـتدل عليها وتيقن منها فمن الجـــدير بالعبـــادة غـــيره، ومن الجـــدير بالطاعة غيره؟ .

كـذلك يخاطبه ليسـتيقن من الحق الـذي خلقت به الســماوات والأرض، وما يســتتبع هــذا الحق من بعث ونشور وحساب وثـواب وعقـاب: (**أفحسـبتم أنما خلقنـاكم عبثـاً وأنكم إلينا لا ترجعـون**) (**وما خلقنا الســـــــماء والأرض وما بينهما باطلاً. ذلك ظن الذي كفروا..**) (**إن في خلق الســموات والأرض واختلاف الليل والنهــار لآيــات لأولي الألبـاب. الـذين يـذكرون الله قيامـاً وقعـوداً وعلى جنـوبهم. ويتفكـرون في خلق الســموات والأرض. ربنا ما خلقت هـذا بـاطلاً سـبحانك فقنا عـذاب النـار. ربنا إنك من تـــدخل النـــار فقد أخزيتـــه. وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديــاً ينـادي للإيمـان أن آمنـوا بـربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنــا. وكفر عنا سـيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعـدتنا على رسـلك**

ولا تخزنا يوم القيامة. إنك لا تخلف الميعاد) .

إن الله الذي صفاته هي تلك الـتي عرفها العقل واستيقن منها لا يمكن عقلاً أن يخلق شـيئاً عبثـاً، أو أن يخلق شـيئاً بـاطلاً، إنما يخلق كل شـيء بـالحق، والحق يقتضي أن يكـــون هنـــاك يـــوم يحاسب فيه النـاس على أعمـالهم في الحيـاة الـدنيا، لأنه لا يتم الجـزاء الحق في الحيـاة الـدنيا كما يـرى الإنسـان بنفسه.. فكم من ظـالم ظل يظلم حـتى مـات، وكم من مظلــوم ظل مظلومــاً حــتى مــات. فلو كــانت الحيـاة الـدنيا هي نهاية المطـاف فـأين الحـق؟ إنما يحق الحق حين يبعث الناس فيحاسبون على السيئة والحسنة، ويأخذ كل إنسان جزاءه بالحق .. وإذا كان الأمر على هــذه الصــورة فــإن ((العقل)) يقتضي أن يحسب الإنسـان لهـذا اليـوم حسـابه، وأن يعمل من الأعمـال ما يقربه من الجنة ويبعـده عن النـار.. وألا تفتنه اللـــذة العاجلة عن النعيم المقيم. **(كل نفس ذائقة المــوت وإنما توفــون أجــوركم يــوم القيامة. فمن زحـزح عن النـار وأدخل الجنة فقد فاز. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور).**

وهـذه الأمـور كلها يخـاطب فيها الوجـدان – مع العقل – لتترتب عليها حركة سـلوكية واقعيــة، ولكن العقل فيها واضح لا يحتاج إلى تأكيد.

ثانياً: يوجه العقل بعد ذلك إلى تـدبر آيـات الله في الكون للتعرف على أسـراره. للتعـرف على خـواص ذلك الكـــون، لإمكـــان تســـخيرها لعمـــارة الأرض. والتسـخير قـائم من عند الله ابتـداء، (**وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه)** ولكن تحقيق هــذا التســخير في عــالم الواقع لا يتم

بمجرد رغبة الإنسان في ذلك، فهو ليس إلهـاً يقـول للشيء كن فيكـون. إنما يتحقق هـذا التسـخير بجهد معين يبذله الإنسان. جهد عقلي يتعـرف به الإنسـان على أسرار الكون وخواصـه، وجهد عضـلي يطبق به الإنسان ثمار معرفته في صورة عمل منتج.

وكل ذلك يوجه العقل لأدائـــــه. بل هو ميدانه الأصـيل الـذي تتجلى فيه كل عبقريتـه، والـذي لا يشـاركه فيه غـيره. وليس معـنى ذلك أنه في هـذا الميـدان لا يخطئ ولا يتـوهم، فكثـيراً ما يقع في الخطأ والوهم كما بين تاريخ العلوم، ولكن معنـاه أن لديه أوسع فرصة ليصل إلى الحقيقة فيما قـدر الله أن يكشف له من أمور هـذا الكـون. ولكنه يوجه إلى ذلك بعد أن يوجه إلى التعـرف على الخـالق، وعلى كل قضايا العقيدة . ولذلك حكمة واضحة.

فالعقل البشـري ما لم يعوقه معـوق- كما كـان من أمر الكنيسة الأوروبية وحجرها على العقل أن يفكر – مفطـور بطبعه على التفكـير فيما حولـه، واستنباط الطـرق الـتي تحقق للإنسـان حاجاتـه، ثم تحسـينها ومحاولة الوصـول بها إلى أقصى حد من الإتقان والفاعلية، من أجل الحصول على القـدر من «المتـاع» الـذي قـدره الله للإنسـان في الأرض . **(ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)** .

ولكن العبرة في حياة «الإنسان» ليست بمجـرد العمـارة المادية للأرض، ولا مجـرد الحصـول على المتاع من أي لـون ومن أي طريـق، إنما «الإنسـان» خلق لشـيء أرفع من ذلك وأسـمى.. خلق لحمل «الأمانة» الـتي أشـفقت من حملها السـماوات والأرض والجبـال: **(إنا عرضـنا الأمانة على السـماوات والأرض والجبـال فـأبين أن**

يحملنهـــــــا، وأشـــــــفقن منها . وحملها الإنســان..) وحمل الأمانة لا يتم بمجــرد العمــارة المادية ولا المتاع الحســي.. إنما يتم بإقامة ذلك كله على أساس من ((القيم)).. والقيم الحقيقية هي التي حواها المنهج الربـاني للحيـاة. ومن ثم كـان لابد من توجيه العقل أولاً –والكيـــــان الإنســـــاني كله في الحقيقة – للتعــرف على الله والإيمــان به وطاعتــه، حتى إذا جاء العقل يتعرف على الكون، ويعمل على تســخير طاقاته في عمــارة الأرض، كـــان مهتـــدياً بالهدى الربـاني، فأقـام عمـارة الأرض على أسـاس المنهج الرباني الذي به وحده تصلح الحياة .

وقد مر بنا في هـــــــذا الفصل وما قبله كيف صـــــارت الأرض حين قـــامت عمارتها المادية على ((قيم)) أخــــرى غـــير القيم الـــتي قررها الله وأمر بإقامتها في الأرض. وحاضر الجاهلية المعاصرة غني عن الإشارة وغني عن التعليق.

فتوجيه العقل – في الإسلام- إلى التعــرف على الســنن الكونية من أجل عمــارة الأرض بعد توجيهه إلى الإيمــان باللـــه، هو المنهج الصـــحيح لتنشـــئة ((الإنسان الصالح)) الذي تسعى البشرية –نظرياً- إلى تنشـــئته، ولكنها تخفق دائمـــاً حين تتنكب المنهج الرباني، وتنشئ من عندها مناهج تؤدي إلى البوار.

وإن كان لنا من شــيء نـذكر به أو نعيد التـذكير به في هذا المجـال، فهو أن الأمة المسـلمة –بتوجيه الإســلام- هي الــتي أنشــأت المنهج التجريــبي في البحث العلمي، الــذي قــامت عليه كل نهضة أوروبا العلمية فيما بعد، ولكنها تفردت في التاريخ بأنها هي الــتي أنشــأت حضــارة ((إنســانية)) حقيقيــة، تمثل ((الإنســـان)) كله لا جانبـــاً واحـــداً من جوانبه وتمثله

متوازنـــاً كما ينبغي للإنســـان، لا العمل في الـــدنيا يشـغله عن الآخـرة، ولا المتـاع الحسي يشـغله عن المتـاع الـروحي المتمثل في العبـادة، وفي الجهـاد لإقامة الحق والعـدل في الأرض. ولا رؤية الأسـباب الظاهرة تفتنه عن السـبب الحقيقي، ولا العلم يفتنه عن الـدين.. إلى آخر تلك الانحرافـات الـتي وقعت فيها الجاهلية الأوروبية حيث رفضت الهـدى الربـاني وجعلت ((عقلها)) يرسم لها الطريق!.

ثالثـاً: يوجه العقل في الإســلام إلى تـــدبر حكمة التشـريع لإحسـان تطبيقـه. ومن أجل الاجتهـاد فيما أذن الله فيه بالاجتهاد . وحقيقة إن هذا في الإســلام فرض كفاية لا فرض عين، لأنه لا يتيسر لكل النـاس –وإن كانوا مؤمنين – أن يتفقهـوا في أحكـام الـدين. إنما الفقهاء لهم استعداد خاص، ويحتاجون إلى دربة خاصة لا تتاح لكل إنسان.

ولكن فرض الكفاية معناه أن يتخصص له فريق من الأمة –ممن يحملون الاستعداد وينـالون الدربة – فيسقط التكليف عن الآخرين. فإن لم ينتدب له أحد من أفراد الأمة فهي كلها آثمة حتى تهـيئ من يقـوم عنها بهـــذا الأمـــر. **(فلـــولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهـوا في الـدين)** وإعمـال العقل لتـــدبر حكمة التشـــريع أمر واضح الضـــرورة وواضح الحكمة . فالتشـــريع أولاً لا ينطبق انطباقـــاً آلياً على كل حالة من الحالات التي تقع بين البشر.

إنما يحتـــاج الأمر إلى إعمـــال العقل لمعرفة الحكم الـــــــذي ينبغي تطبيقه في الحالة المعينة المعروضة للحكم، ولمعرفة الطريقة الصـــــحيحة لتطبيقه.

ثم إن هذه الشريعة الـتي نـزلت لتـواكب حيـاة البشرية كلها منذ نزولها إلى قيام الساعة، قد روعي فيها أن تواجه الثابت والمتغير حياة الناس.

فأما الثابت –الذي لا يتغير، أو لا ينبغي أن يتغـير لأن تغيـيره يحـدث فسـاداً في الأرض- فقد أتت فيه الشريعة المسـتمدة من كتـاب الله وسـنة رسـوله ﷺ بتفصيلات وافية تشـمل الأصـول والفـروع والكليـات والجزئيات .

وأما المتغير – الذي يجد في حياة النــاس بحكم التفاعل الدائم بين العقل البشـري والكـون المـادي وما ينشأ عن ذلك من علـوم وتطبيقـات وتحـويرات في أنماط الحيـاة، والـذي أذن الله فيه بـالتغيير لأن ثباته يجمد الحيــاة ويوقف نموهــا- هــذا المتغــير لم تتناوله الشريعة بالتفصيل –بحكم تغيره الــدائم- إنما وضعت له الأسس التي ينمو نمـواً سـليماً في داخل إطارهــا، وتــركت للعقل المــؤمن المهتــدي بالهــدى الرباني، المتفقة في أمور الدين، أن يسـتنبط له من الأسس الثابتة ما يناسبه في كل طور من أطواره.

لذلك كـان الفقه عملاً دائم النمو لا يتوقـف، ولا يجوز له أن يتوقف.. لأنه إذا توقف فليس لــذلك من نتيجة إلا أن تجمد الحياة أو تخرج من إطار الشريعة الربانية الحكيمة .

ولقد قام العقل الإسلامي في ميـدان الفقه في فترة نشـاط هـذه الأمة وحيويتها بجهد رائـع، ما زال يُعد تراثـاً إنسـانياً ثمينـاً إلى هـذه اللحظـة، رغم ما أصـاب الأجيـال المتـأخرة من الجمـود، وما أصـاب الأجيال الأخيرة من الإعراض!.

والذي يطلع على هذا الفكر يدرك مدى شــمول هـذه الشـريعة وحيويتها وقـدرتها على مواكبة النمو

البشري من جهة، ويدرك من جهة أخـرى ما قـام به العقل الإسلامي المفكر من فتوحات في هذا الباب، كانت كلها وليدة توجيهات الإسلام.

رابعاً: ترد في كتاب الله مجموعة من السنن الـتي يجري الله بها قدره في حياة البشـر. وتـرد الإشـارة المكررة بأن سنة الله لا تتبدل ولا تتغـير، ولا تتوقف محاباة لأحد من الخلق. ويوجه العقل إلى تدبر هـذه السنن من أجل إقامة المجتمع الصالح الذي يتمشى مع مقتضياتها ولا يصادمها.

فالحياة البشرية ابتداء ليست فوضى بلا ضابط. إنما يضبطها نظام رباني دقيق، يسـير بحسب سـنن ثابتة، ترتب نتائج محددة على السـلوك البشـرى في جميع أحوالـه. ومن ثم يسـتطيع الإنسـان أن يتـبين السلوك الصائب الـذي ينبغي أن يسـلكه، كما يتـبين النتائج المتوقعة من سلوكه، لا رجمـاً بـالغيب، ولكن تحقيقاً لسنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير .

وهذه السنن تتناول حيـاة الجماعـة، فهي سـنن اجتماعية في غالبها، أما ما يرد بشـأن الفـرد فغالبـاً ما يكون متعلقاً بالجزاء الذي يجزاه في الآخرة لقـاء عمله في الدنيا، وإن كان بعض السنن يأتي فيه ذكر المفـرد كقوله تعـالى: **(ومن أعـرض عن ذكـري فإن له معيشة ضـنكاً ونحشـره يـوم القيامة أعمى)** .

خامســـاً: يوجه العقل إلى دراسة التـــاريخ: **(قد خلت من قبلكم سـنن فسـيروا في الأرض فانظروا كيف كـان عاقبة المكـذبين) (أو لم يســيروا في الأرض فينظــروا كيف كـــان عاقبة الــذين من قبلهم؟ كــانوا أشد منهم قـــوة وأثـــاروا الأرض وعمروها أكـــثر مما**

عمروها. وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كـــــانوا أنفســــــهم يظلمون) (أفلم يسـيروا في الأرض فتكـون لهم قلــوب يعقلــون بها أو آذان يســمعون بهــــا. فإنها لا تعمى الأبصــــار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

وواضح أن دراسة التـاريخ المطلوبة هي للعـبرة لا للتســلية وتزجية الفــراغ، ولكن ينبغي أن نعــرف مواطن العبرة من دراسة التاريخ..

إن السنن الربانية التي أشـرنا إليها في الفقـرة السابقة، والتي يجري قـدر الله بمقتضـاها في حيـاة البشـرية، والـتي قلنا إن العقل البشـري مـدعو إلى تدبرها والتفكر فيها من أجل إقامة المجتمع الصــالح القـائم على المنهج الربـاني.. هـذه السـنن – بطبيعتها –نــــــادراً ما تتحقق بتمامها في داخل عمر الفـــرد المحـــدود، لأن الســـنن الاجتماعية بطبيعتها تستغرق أجيالاً متوالية حتى يتم التحـول الاجتمـاعي سواء إلى الخير أو إلى الشر (فيما عدا القلة النادرة التي تقتضي حكمة الله فيها تحقيق سنة بكاملها في أمد قصير، تأييداً لنبي أو تمكيناً لجماعة مؤمنة، كما حدث مع الرسـول وبنـاء هـذه الأمة الشـامخة في سنوات قصار) .

وانظر مثلاً إلى هـذه السـنة: **(فلما نسـوا ما ذكــروا به فتحنا عليهم أبــواب كل شـــيء. حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فــإذا هم مبلسون)** .

فـــالجزء الأول من هـــذه الســـنة يمثل الواقع الأوربي في وقته الحاضر .. نســـوا ما ذكـــروا بـــه، وكفروا وجحدوا، ففتح الله عليهم أبـواب كل شـيء،

من قوة سياسية وقوة عسكرية وقـوة عملية وقـوة تكنولوجية وقوة اقتصادية .. وكل ما يمكن أن يدخل في ((أبواب كل شيء)). وهذا الجـزء وحـده من هـذه السنة قد اسـتغرق قـرنين كـاملين من الزمـان، ولد فيه أفــراد –بل أجيــال- قضــوا أعمــارهم في هــذه الحيـاة ورحلـوا، ولما تتحقق بقية السـنة المـذكورة في الآية، (**حتى إذا فرحوا بما أوتـوا أخـذناهم بغتة فـإذا هم مبلسـون**) ! بل تـوهم أنـاس في وقت من الأوقات أن هذه الأبواب المفتوحة سـتظل مفتوحة إلى الأبد لا تغلق ولا تتهــدم على أصــحابها مهما ارتكبوا من آثام!.

واليوم بدأ مفكـرو الغـرب أنفسـهم يـدركون أن ((حضارتهم)) آيلة إلى الانهيار.. وبدءوا ينذرون قومهم إذا اســـــتمروا في البعد عن ((القيم الروحية)) كما يسمونها[1] أن يصيبهم الدمار الذي أصـاب أممـاً من قبلهم.. ولكن كم يستغرق ذلك من الزمان؟ جيلاً أو أجيـالاً كما اسـتغرق تحقيق الجـزء الأول من سـنة الله!.

لــذلك يوجه الله ((العقل)) أن يتــدبر التــاريخ ! فالتاريخ هو المجال الواسع الذي تتحقق فيه السـنن الربانية بأكملها، سواء منها ما يتحقق في عمر الفرد وما يتحقق في عمر الأجيال، والأغلب هو الأخير!.

تــدبر التـاريخ إذن هو في الواقع تــدبر السـنن الربانية في واقعها التــــاريخي الــــذي يمتد خلال القــرون، وبرؤية الطريقة الواقعية الــتي تتحقق بها تلك السنن في حياة الأمم والأفـراد، لتتحقق العـبرة الكاملة في نفوس الناس، فيسايروا هذه السـنن ولا يصـــادموها، ولا يقـــول قائل لنفسه –على ســـبيل

---

[1] (?) لأنهم مــازالوا في جــاهليتهم يكرهــون أن يــذكروا الــدين باســمه الصريح ! .

المثـــــال- ها أنــــذا قد عشت في المجتمع الفاسد عمري كله وشـاركته الفسـاد فلا أنا أصـابني الـدمار ولا المجتمع الذي عشت فيه ! ولا يقول قائل لنفسه لمــاذا أجهد نفسي في تقــويم المجتمع من انحرافه الخلقي أو الفكري أو الروحي.. ما دام هـذا المجتمع يملك القــوة العســكرية والقــوة السياســية والقــوة الاقتصادية التي تسنده وتمنعه من الدمار! ولا يقـول قائل لنفسه: ما قيمة ((القيم))؟ وما فائدة ((الــدين))؟ وما معــــنى ((الأخلاق))؟ إذا كـــان يمكن للمجتمع أن يعيش متماسكاً قويـاً بغـير ذلك كله عـدة قـرون؟!. تلك عبرة دراسة التاريخ)) [1] .

ويقول الدكتور فهد الـرومي: ((ليس ثمة عقيـدة تقوم على احـترام العقل الإنسـاني وتعـتز به وتعتمد عليه في ترســيخها كالعقيـدة الإســلامية، وليس ثمة كتــاب أطلق ســراح العقل وغــالى بقيمته وكرامته كالقرآن الكريم كتاب الإسـلام بل إن القـرآن ليكـثر من استثارة العقل ليؤدي دوره الذي خلقه الله له .

ولـــذلك نجد عبـــارات (**لعلكم تعقلـــون**) و (**لقومٍ يتفكـرون**) و (**لقـومٍ يفقهـون**) ونحوها تتكرر عشـرات المـرات في السياق القـرآني لتؤكد النهج القرآني الفريد في الدعوة إلى الإيمان وقيامه على احترام العقل.

ولقد أبــــرز الإســـلام مظـــاهر تكريمه للعقل واهتمامه به في مواضع عدة نذكر منها:-

أولاً: قيام الدعوة إلى الإيمـان على الإقنـاع العقلي :

فلم يطلب الإســـلام من الإنســـان أن يطفئ مصــــباح عقله ويعتقد بل دعـــاه إلى إعمـــال ذهنه

---

[1] (?) مذاهب معاصرة (533-551) بتصرف .

وتشغيل طاقته العقلية في سبيل وصولها إلى أمــور مقنعة في شــؤون حياتهــا، وقد وجه الإســلام هــذه الطاقة بتوجيهات عدة لتصل إلى ذلك :

1- فوجهها إلى التفكر والتدبر.

I- في كتابه .

(كتاب أنزلناه إليك مبـارك ليـدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) (أفلا يتدبرون القـرآن ولو كـــان من عند غـــير الله لوجـــدوا فيه اختلافاً كثيراً) (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

ثم يســتثير العقل الإنســاني ويتحــداه أن يــأتي بمثل هذا القرآن حتى إذا ما أدرك عجـزه عـرف أنه من عند الله **(قل فـــأتوا بعشر ســـور مثله مفتريــات) (فليــأتوا بحـديثٍ مثله إن كـانوا صادقين)** .

II- وفي مخلوقاته :

(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنــوبهم ويتفكــرون في خلق الســموات والأرض ربنا ما خلقت هـذا بـاطلاً سـبحانك فقنا عـــذاب النـــار) (أو لم يتفكـــروا في أنفسهم ما خلق الله السـموات والأرض وما بينهما إلا بــالحق وأجل مســمى وإن كثــيراً من النـــاس بلقـــاء ربهم لكـــافرون) (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبـال كيف نصـبت وإلى الأرض كيف سطحت) .

ثم يتحدى العقل بحواسه أن يجد خللا في شيء منها ليزداد بعد عجزه إيماناً وتسـليماً **(الـذي خلق ســبع ســموات طباقـــاً ما تـــرى في خلق**

الرحمن من تفـاوت فـارجع البصر هل تـرى من فطـــور ثم ارجع البصر كــــرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير)

V- وفي تشريعاته :

(ولكم في القصــــــاص حيـــــاة يا أولي الألبـاب لعلكم تتقـون) (وأن تصـوموا خـير لكم إن كنتم تعلمـون) (يا أيها الـذين آمنـوا إذا نـودي للصـلاة من يـوم الجمعة فاسـعوا إلى ذكر الله وذروا الــبيع ذلك خـــير لكم إن كنتم تعلمون) .

فـــأمر بـــالتفكر في تلك التشـــريعات لتحـــري الحكمة فيها لأن الحيــاة لا تســير آلية بحيث تنطبق عليها القاعـدة التشـريعية انطباقـاً آليـاً، وإنما هنـاك مئـات من الحـالات للقاعـدة الواحـدة، وما لم يكن الإنســـان مــــدركاً للحكمة الكامنة وراء التشــــريع وفاهماً لترابط التشريعات في مجموعها فلن يتمكن من تطبيقها في تلك الحالات المختلفة الـتي تعـرض للبشر في حياتهم الواقعية وقد عني الإسلام بإيقـاظ العقل لتدبر هذه التشريعات ليسـتطيع تطبيقها على خير وجه.

VIII- وفي أحـــــوال الأمم الماضــــية وما أدت بهم المعاصي إليه :

(قل سيروا في الأرض ثم انظــروا كيف كـان عاقبة المكـذبين) (ألم يـروا كم أهلكنا من قبلهم من قــرن مكنــاهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجـري من تحتهم فأهلكنـاهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) .

هـ- وفي الدنيا ونعيمها الزائل:

(واضـرب لهم مثل الحيـاة الـدنيا كمـاءٍ أنزلناه من السـماء فاختلط به نبـات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكـان الله على كل شيء مقتدراً) .

وهــذا التأمل والتــدبر ليس هو المقصــود لذاته وإنما ليؤدي ثمرة نافعة لا أعني بها فلســفة يتشـدق بها الفلاســفة ويتبـــارون في إغمـــاض الكلام فيها وإبهامه ثم لا ينتهــون إلى شـــيء، وإنما أعــني بها الإصلاح ... إصلاح القلب .. إصلاح العقيدة... إصــلاح الحياة في الأرض على منهج الدين الصحيح.

2-ووجه الإســـلام الطاقة العقلية لمراقبة نظــــام الحيـــاة الاجتماعية مراقبة توجيه وإصـــلاح لتســـير الأمــــور على منهج صـــــحيح **(ولتكن منكم أمة يـــدعون إلى الخـــير ويـــأمرون بـــالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)** .

وحمل المسـؤولية كل فـرد من أفـراد المجتمع وهدده بالعقاب إذا علم ولم يصـلح ولو كـان صـالحاً في نفسه **(واتقـــوا فتنـــةً لا تصـــيبن الـــذين ظلموا منكم خاصة) (لعن الـذين كفـروا من بني إسـرائيل على لسـان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتـدون كـانوا لا يتنــاهون عن منكر فعلــوه لــبئس ما كــانوا يفعلون)**.

وقـــال ((**كلكم راعٍ وكلكم مســـؤول عن رعيته**)) .

ثانيـــاً: ولم يقصر الإســـلام بعد هـــذا العقل على الإيمان وإنما ترك له الخيـار بين الإيمـان والكفر **(لا إكراه في الدين) (وقل الحق من ربكم فمن شـاء فليـؤمن ومن شـاء فليكفـر) (أفـأنت**

تكره النـاس حـتى يكونـوا مؤمـنين) (فـذكر إنما أنت مــذكر لست عليهم بمصــيطر) فلم يكره الإسلام العقل على الإيمان[1] .

ثالثــاً : وحــرص على قيــام العلاقة بين العبد وربه على الوضوح العقلي في العقيـدة والشـريعة وعـدم تقييـــده له بعد اقتناعه وإيمانه بالرهبانية فلا رهبانية في الإسلام[2] لما فيها من تقييد للعقل[3] فضــلاً عن الغرائز والحـــــــــواس ولما فيها من تعطيل للطاقة والقـوى البشـرية والمخالفة لنظـام الحيـاة مخالفة تقضي بالفنـــاء على البشر فيما لو اعتنق النـــاس الترهب والانعزال ديناً.

---

1 (?) ولا يقصد بلا إكراه في الدين- التقليل من شـأن الجهـاد كما حصـره بعضـهم بـأن المـراد به الـدفاع وعللـوا كل حركة بأنها للـدفاع بمعنـاه الاصـطلاحي الحاضر الضـيق فأسـقطوا – وهم مشـتطون في حماسة الــدفاع عن الإســلام ضد من اتهمــوه بأنه دين الســيف – إن للإســلام بوصــفه المنهج الأخــير للبشــرية حقه الأصــيل في أن يقيم ((نظامه)) الخـاص في الأرض. فــ(لا إكـراه في الـدين) من ناحية العقيـدة أما من ناحية إقامة ((النظـام الإسـلامي)) ليظلل البشـرية كلها مسـلمين وغـير مسـلمين فتـوجب الجهـاد لإنشـائه وتـرك النـاس أحـراراً في عقائـدهم الخاصة ولا يتم هـذا إلا بإقامة سـلطان خـير وقـانون خـير ونظـام خـير يحسب حســابه كل من يفكر في الاعتــداء على حرية الــدعوة وحرية الاعتقاد في الأرض)) أ هـ.
((بتلخيص من خصـائص التصـور الإسـلامي ومقوماته)) لسـيد قطب ص 18 .

2 (?) لما روى أحمد في مسنده 6/226 ((....فقال يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا أفمالك فيَّ أسوة.. الحديث ولما روى الدارمي في سننه ك النكاح ب3 من حديث سعد بن أبي وقاص قال ((... يا عثمان إني لم أؤمر بالرهبانية أرغبت عن سنتي)) وعثمان هـذا هو ابن مظعـون رضي الله عنه .

3 (?) ولا يصح القـول بـأن الرهبانية تفتح آفـاق العقل وتضـمن له الصـفاء للتفكـير بل النــزول إلى معـترك الحيـاة هو الـذي يزيد العقل اشـتعالاً ويوري زناده ويفتح له أبواب التفكير عكس الرهبانية التي تخبو فيها نار العقل لانطواء صاحبها على نفسه واعتزاله المجتمع، فتؤدي إلى خمــود الــذهن وعــدم الاطلاع على المعــارك الضــارية بين الخــير والشر وبين الإيمــان والكفر وعلى كيد الملحــدين ومكر المــاكرين والــرد على ذلك والنـزول إلى معتركهم وحلبتهم .

رابعاً: ومن مظاهر تكريم الإسـلام للعقل نعيه على المقلدين الذين لا يُعملون أذهانهم وحـذر من التقليد الأعمى والتعصب الأصم لنظريات واهية وآراء زائفة ناشـئة عن الخرافـات والأهـواء **(وإذا قيل لهم اتبعـوا ما أنـزل الله قـالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتـدون) (أصـلاتك تـأمرك أن نـترك ما يعبد آباؤنـا) (فلا تـكُ في مريـةٍ مما يعبد هـؤلاء ما يعبـدون إلا كما يعبد آبـاؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص)** .

وأمر بـالتثبت في كل أمر قبل الاعتقـاد به واقتفائه **(ولا تقف ما ليس لك به علم إن السـمع والبصر والفـؤاد كل أولئك كـان عنه مسـؤولاً) (يا أيها الـذين آمنـوا إن جـاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)** .

خامساً : ومن مظاهر تكـريم الإسـلام للعقل أمـره بـالتعلم والحث على ذلك فكما أن نمو الجسم بالطعام فإن نمو العقل بالعلم إذ بهذا يكون الإيمـان عن إدراك أوسع وفهم أعمق وإقنـاع أتم، بل قـرن سـبحانه ذكر أولي العلم بـذكره عز وجل وذكر ملائكته **(شـهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمـاً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) (إنما يخشى الله من عبـاده العلمـاءُ) (يرفع الله الـذين آمنـوا منكم والذين أوتوا العلم درجاتٍ)** .

وجعل العلم مشـاعاً لأنه غـذاء العقل الـذي به ينمو **(إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينـات والهدى من بعد ما بيناه للنـاس في الكتـاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنـون إلا**

الـذين تـابوا وأصـلحوا وبينـوا فأولئك أتـوب عليهم وأنا التواب الرحيم).

لذا لم يعرف الإسلام ((رجل الدين)) الذي يحتكر علومه ويعطي صـــكوك الغفـــران ويملك التحليل والتحـريم ولكنه يعـرف فكـرة ((عـالم الـدين)) الـذي يرجع إليه لمعرفة حكم الله فيما اشتبه على النــاس من أمور دينهم مسـتنداً إلى دليل معتـبر شـرعاً من غــير إلــزام إلا بحجة قطعية من كتــاب أو ســنة أو إجماع مسلم به.

سادساً: ومن ذلك إسناده استنباط الأحكـام فيما لا يوجد فيه نص من كتاب أو سنة أو إجماع إلى العقل وما حـديث معـاذ عنا ببعيد حين بعثه الرسـول إلى اليمن قاضياً قال : ((**كيف تقضي يا معاذ؟**)) قــال : بكتــاب الله قــال: ((**فــإن لم تجد**)) قــال : ســنة رسـول اللـه. قـال : ((**فـإن لم تجد**)) قـال : أجتهد رأيي ولا آلو فضــرب رســول الله صــدره وقــال : ((**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله**)) [1] فجعل من اجتهـاد العقل أساساً للحكم وقاعدة للقضاء عند فقدان النص .

ســــــابعاً : ومنها الأمر بتكريمه والمحافظة عليه والنهي عن كل ما يــؤثر في ســيره أو يغطيه فضــلاً عما يزيله.

فحـــــرم لـــذلك شــــرب الخمر (**إنما الخمر والميسر والأنصــاب والأزلام رجس من علم الشـيطان فــاجتنبوه**) وحــرم كل مســكر ((**كل مسكر خمر وكل مسكر حرام**))[2] وامتد التحريم

---

1 (?) رواه أحمد وأبو داود والترمــذي والــدارمي، و ضــعفه الألبــاني في (السلســلة الضــعيفة 2/274) لإرســاله وجهالة بعض رواته في بحث طويل له.

2 (?) رواه مسلم .

إلى الكمية الـتي لا تسـكر منها ((**ما أسـكر كثـيره فقليله حرام**))[1] كل هذا حفاظاً على العقل وعلى بقائه .

وجعل الدية كاملة على من تســـبب في إزالته عن آخر، قال ابن قدامة (لا نعلم في هذا خلافـاً وقد روي عن عمر وزيد رضي الله عنهما وإليه ذهب من بلغنا قوله من الفقهاء وفي كتاب النـبي لعمـرو بن حـــزم ((**وفي العقل الدية**)) ولأنه أكـــبر المعـــاني قدراً وأعظم الحواس نفعاً فإن به يتميز من البهيمة ويعـرف حقـائق المعلومـات ويهتـدي إلى مصـالحه ويتقي ما يضـره ويـدخل به في التكليف وهو شـرط في ثبوت الولايات وصحة التصرفات وأداء العبـادات فكان بإيجاب الدية أحق من بقية الحواس) [2] .

ولكن الإســـلام بعد هـــذا التكـــريم كله وذلك الاهتمـام قد حـدد للعقل مجالاته الـتي يخـوض فيها حتى لا يضل. وفي هـذا تكـريم له أيضـاً لأنه محـدود الطاقـــات والملكـــات فلا يســـتطيع أن يـــدرك كل الحقـــــائق مهما أوتي من قـــــــدرة وطاقة على الاســتيعاب والإدراك، لــذا فإنه ســيظل بعيــداً عن متناول كثير من الحقائق وإذا ما حاول الخــوض فيها التبست عليه الأمور وتخبط في الظلمـات وفي هـذا مــدعاة لوقوعه في كثـير من الأخطــاء وركوبة متن العديد من الأخطار .

فأمر الإسلام العقل بالاستسلام والامتثـال للأمر الشـــرعي الصـــريح حـــتى ولو لم يـــدرك الحكمة والســـبب في ذلـــك، وقد كـــانت أول معصـــية لله

---

1 (?) رواه أبو داود والنســائي وابن ماجة وقــال الترمــذي حسن غــريب وابن حبان .
وصححه وقال الحافظ بن حجر رجاله ثقات (صحيح أبي داود 3128) .

2 (?) المغني لابن قدامة (8/37).

ارتكبت بسبب عدم هذا الامتثال فحينما أمر الله سبحانه وتعالى إبليس بالسجود لآدم عليه السلام استكبر وعصى واستبد برأيه فقارن بين خلقه وخلق آدم عليه السلام (**قال أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين**) فلم يمتثل للأمر طلباً للسبب الذي يسجد لأجله الفاضل للمفضول حسب رأيه، فلما لم يدرك عقله السبب رفض الامتثال فكانت المعصية وكانت العقوبة .

لذا منع الإسلام العقل من الخوض فيما لا يدركه ولا يكون في متناول إدراكه كالذات الإلهية والأرواح في ماهيتها ونحو ذلك فقال عليه الصلاة والسلام ((**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله**)) [1] وقال : ((**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله ورسله**)) [2] . وعن الروح قال تعالى: (**يسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**) فصرف الجواب عن ماهيتها لأنه ليس من شؤون العقل السؤال عنها ولا من مداركه وكذلك الجنة ونعيمها والنار وجحيمها وكيفية ذلك وغيرها من المغيبات التي ليست في متناول العقل ومداركه)) [3] .

ويقول الشيخ ناصر العقل –حفظه الله-: ((قيمة العقل في الإسلام)):

---

1 (?) رواه أبو نعيم في الحلية وابن أبي شيبة والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص 159 وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكتسب قوة والمعنى صحيح. والحديث صححه الألباني –رحمه الله- في السلسلة الصحيحة (1788) .

2 (?) رواه البخاري ومسلم .

3 (?) منهج المدرسة العقلية (29-39) وكتاب الدكتور الرومي هذا من أجود الكتب التي درست منهج المدرسة العقلية في التفسير .

قد يتبادر لأذهـان البعض، عند ما يقـرأ مثل هـذا البحث، في ذم الاتجاهـــات العقلية – أن الإســـلام، يمقت العقل والفكر، أو يسـتنقص منهما ويهضـمهما قيمتهما، وأننا إنما نـذم أصـحاب الاتجاهـات والفـرق العقلية لمجرد أنهم استعملوا عقـولهم، الـتي وهبهم الله .

والحق: أن الأمر ليس كـذلك، لأن الإسـلام بحق قد رفع قيمة العقل وأعلى من شـأنه، وجعل التعقل والتفكير فريضة إسلامية، يلزم كل مسـلم أن يؤديها حقهـا، وجعل العقل هو منـاط التكليـف، ونعى على أولئك الذي لم يسـتعملوا عقـولهم في معرفة الحق والهدايــة، فهلكــوا . **(وقــالوا لو كنا نســمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السـعير فـاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير)** [1] .

وإذا كــان العقل هو وســيلة النظــر، ووســيلة التفكــير والتــدبر، فقد جعل الله ذلك كله واجبــاً، مفروضــــاً على كل إنســــان ومن تركه فهو آثم لا محالة قــــال تعــــالى: **(فســــيروا في الأرض فانظروا)** [2] .

وقد وردت في مواضع كثيرة .

وقال تعالى في ذم الذين لا يعقلون :

(وهو الـــذي يحـــيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون) [3].

وقد ورد هـــذا التـــوبيخ **(أفلا تعقلـــون)** في القرآن أكثر من أربع عشرة مرة.

1 (?) (10-11) الملك .
2 (?) (36 النحل) .
3 (?) (80 المؤمنون) .

وقال تعالى: **(إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلـــون)** [1]. وقد وردت في القـــرآن **(لعلكم تعقلون)** أكثر من سبع مرات.

وقال تعـالى: **(ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون)** [2] .

وقال تعالى :

(كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) [3] .

وإذا كان العقل وسيلة النظر والاعتبار فقد قـال تعالى: **(فاعتبروا يا أولي الأبصار)**[4].

وقال تعالى :

(قل انظـــروا مـــاذا في الســـماوات والأرض) [5].

وكذلك الأمر بالتفكر، قال تعالى :

(كـــذلك يـــبين الله لكم الآيـــات لعلكم تتفكـــرون) [6]. **(قل هل يســـتوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون)** [7]. **(أولم يتفكروا ما بصـاحبهم من جِنّـة)** [8] . **(أولم يتفكـروا في أنفسهم)** [9].

وقد ذكر التفكر في القرآن في أكـثر من سـبعة عشر موضــعاً . وقد ذم الله أولئك الــذين يتــابعون آبــاءهم دون تعقل ولا تفكــير . فقــال: **(وإذا قيل لهم اتبعــوا ما أنــزل الله قــالوا بل نتبع ما**

---

1 (?) (2 ، يوسف) .
2 (?) (62، يس) .
3 (?) (28، الروم) .
4 (?) (2 ، الحشر) .
5 (?) (101 ، يونس) .
6 (?) (219، البقرة) .
7 (?) (50 ، الأنعام) .
8 (?) (184، الأعراف) .
9 (?) (8 ، الروم) .

ألفينا عليه آباءنا أولو كـــــان آبـــــاؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) [1].

وقال تعالى:

(إنهم ألفــوا آبــاءهم ضــالين فهم على آثارهم يُهرعون) [2].

والإسلام إنما كرّم الإنسـان وفضـله على سـائر المخلوقـات بل جعله سـيد الكـون بالعقـل، وبالعقل ســخّر له ما في الســماوات وما في الأرض وجعله خليفة فيها يعمرها .

فهل يبقى بعد ذلك شك عند أحد في أن الإسلام يحترم العقل ويقدره كل التقدير؟

ثم إن الإسـلام عنـدما حظر على العقل التفكر في ذات الله تعــالى، والخــوض في أمــور الغيب، وألزمه بالتســـليم والتوقف عند كل ما ورد عن الله تعـالى ورسـوله ، مما يتعلق بـذات الله وأسـمائه وصـــفاته، وما يتعلق بـــالغيب كلـــه- إنما فعل ذلك إشــفاقاً على هــذا العقل الكــريم من العماية في متاهات المجهول .

ثم إن الإســـلام في الـــوقت نفسه فتح للعقل البشـري مجـالات الانطلاق الواسع في حـدود الواقع في حياته هو والمخلوقـــــــات من حوله ، بل وفي الأرض كلها والسماء ، وهـذا الكـون الـرحب الواسع الفسيح .

فللعقل البشـــري أن يبـــدع، وأن ينظر ويحكم، وأن يتفكر ويعتـبر ما وسـعه الإبـداع والنظر والتفكر والاعتبار ، عليه أن يفعل ذلك كله، وله مع ذلك عليه الأجر والمثوبة إذا هو امتثل أمر الله .

---

1 (?) (170 ، البقرة) .

2 (?) (69، 70 الصافات) .

أما الغيب والتفكر في ذات الله، بـأكثر مما ورد عن اللـــه، فإنه ليس بمقـــدور العقـــل، وليس من وظيفته أن يفعل ذلـــك، وإن فعل ذلك خـــرج عن نطاق الواجب عليه، ولن يعود عليه فعله إلا بـالحرج والعنت العقلي والنفســي، والخـــروج عن نطـــاق مصلحة الإنسان في معاشه ومعاده.

والعقلية الحديثـــة، هي الـــتي دعت أتباعها إلى الخـــوص في أمـــور الغيب ومعارضة أمر اللـــه، ولم تسـلّم بما جـاء عن الله تعـالى، مما هو خـارج عن نطـاق العقـل، وأقحمته فيما لا طاقة له بـــه، ونحن نذمها من هذا الوجه.

فإن مُقْتَضى الإيمان بالغيب :- التسليم لله فيه، بما ورد في كتابه وسنة رسوله .

والإنسـان في هـذا العصر أكـثر العصـور تقـدماً في الكشـوف والاختراعـات- أعلن عجـزه وقصـوره عن إدراك أكـثر حقـائق الكـون وكُنْـهِ طاقاتـه، حـتى تلك الأشياء التي يمارسها ويعيشها ويومياً، إن العقل يجهل نفسه، ويجهل الروح التي تُمـدّه بالحيـاة بـأمر الله (**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**) [1].

(**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**) [2].

فإكراماً لهـذا الإنسـان ، وإشـفاقاً عليـه، وعلى عقله المحدود، من التشرد والتبدد والتيـه، وإشـفاقاً عليه بعد ذلك من الضـلال والهلاك، وسـوء العاقبـة، أراحه الله من الخـــوض في الغيب بعقلـــه؛ فجـــاءه الـوحي يخـبره عما فيه صـلاحه من أصـول العقيـدة السـليمة، ومسـائل الغيب ، ورسم له سـبيل الخـير

---

1 (?) (21، الذاريات) .
2 (?) (85 ، الإسراء) .

والسـعادة في الـدنيا، وأطلق لعقله فيما عـدا ذلك الحرية كل الحرية.
فقد فتح الإســلام للعقل من مجــالات البحث والفكر والتأمل والنظر في ملكوت السماء والأرض، ما يكفي لانشــغال العقــل، وإشــباع رغبة التطلع والإنتاج المفطورة فيه)) [1].

ويقول الشيخ عبد الرحمن الزنيدي – حفظه الله - :

((لعل من أبـرز السـمات الـتي امتـاز بها الـدين الإسلامي عن سائر المـذاهب والأديـان الأخـرى، هو ذلك المقــام الســامي الــذي وضع الإســلام العقل الإنساني فيه والدور الجليل الذي أناطه به، والآفـاق الواسعة التي فتحها أمامه، بشكل لم تصل المذاهب البشـرية إليه حـتى تلك المـذاهب الـتي تنـادي بأنها حــــررت العقل البشــــري، وأطلقته من آســــاره، واحتكمت إليه، هي في الحقيقة التي سـخرت منـه، واستهانت به:

- فمن جـانب دفعته إلى الإيغـال في مجـالات ليست من اختصاصه فتاه فيها وضل.
- ومن جــــانب آخر تجد هــــذه المجتمعــــات العلمانية – التي تدعى أنها تحكم العقل في أمورها- قد نبذته وراءها ظهريـــــــاً، فأحكامه وتقريراته في جـانب وواقعها في جـانب آخـر، فالعقل يحكم بـأن الخمر والزنا ضـار ومفسد للجنس البشـري والواقع يبيحها ، بل ويحببها، والعقل يقول إن المـرأة تختلف عن الرجل والواقع يقــــول يجب أن نجعلها كالرجل تماماً...، فأي إهانة للعقل بعد هذا، ونعود لنقـول إن

[1] (?) المدرسة العقلية الحديثة في ضوء العقيدة الإسلامية ، بحث مرقوم على الآلة الكاتبة لنيل درجة الماجســتير من جامعة الإمــام . (ص18-22) .

أبعاد تلك المنـزلة التي جعلها الإسلام للعقل تتلخص فيما يأتي :

1) تعظيم الإسـلام لعمل العقل في سـبيل الوصول إلى الحقائق بطرق شتى منها:

I- الثناء على أصحاب العقل الذين يستعملونه في الحكم على الأشـــياء والتعامل معهــــا: فالله سبحانه يخاطب أصحاب العقول حينما يـذكر أحكامه لأنهم هم الــذين يفهمــون أنها أحكــام عــدل وحق **(ولكم في القصـاص حيـاة يا أولي الألبـاب لعلكم تتقون)** [1].

وكذلك حينما يأمر بشيء فإنه يخصـهم بالخطـاب لأنهم يسـارعون إلى امتثـال أمر الله ، والنهـــوض بـــه، يقـــول ســـبحانه (**وتـزودوا فـإن خـير الـزاد التقـوى واتقـون يا أولي الألبـاب**) [2]،فقد خص أولي الألبـــاب بعد حث جميع العبـــاد على التقوى[3].

ومــدحهم بــأنهم هم الــذين يتــذكرون موجبــات الهــدى، ودلائلــه، وينتفعــون بها خلاف اللاهين الغافلين، يقول سبحانه (**وما يذكر إلا أولوا الألباب**) [4]، وأثـنى عليهم بــأنهم هم الــذين يعتــبرون بقصص التــاريخ وحوادث الحياة فيتخـذون منها عـبرة (**لقد كـــان في قصصـــهم عـــبرة لأولي الألباب**) [5]، وقال سـبحانه بعد قصة لـوط

---

1 (?) البقرة – 179 .
2 (?) البقرة ، 197.
3 (?) فتح القدير 1/201 .
4 (?) البقرة 269، آل عمران 7.
5 (?) يوسف آخر آية.

وقومه (**ولقد تركنا منها آية لقـــــوم يعقلون**) [1] .

II- جعله مدخلاً تأسيسـياً لإثبـات أخطر قضـايا الدين وهي العقيدة: فقد جعل القرآن هـذا العقل إذا تجـــرد عن الهـــوى والمصـــلحة والتـــأثر بالمحيط الخـــارجي الفاسد هو الطريق الموصل إلى الحق ، وإثبات صحة العقيدة، وصـدق النبـوة يقـول سـبحانه (**قل إنما أعظكم بواحـــدة أن تقومـــوا لله مثنى وفرادى ثم تتفكـروا ما بِصـاحبكم من جِنّـة، إن هو إلا نـذير لكم بين يـدي عـذاب شديد**) [2] .

وإنها لدعوة جليلة إلى إعمـال الـذهن، وتشـــغيل الطاقة العقليـــة، لتقتنع بـــالحق فتأخذ به ، وتعرف الزيف فترفضه، لا دعوة إلى إطفـاء مصـباح العقـل، والاعتقـاد على عمى فيما لا يقبله العقل كما في المسيحية الكنسية .

V- ذم المقلدين الذين ألغو عقولهم:

أزرى القرآن الكريم بمن عطلـوا تفكـيرهم وأغلقـوا منافذ الهداية والمعرفـة، وأخـذوا أمـور حيـاتهم عن طريق التقليـد، والتبعيـة، والوراثة لآبـائهم، ولما وجـدوا عليه مجتمعـاتهم ، قـال سبحانه (**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ومثل الذين كفروا كمثل الـذي ينعق بما**

---

1 (?) العنكبوت 35 .

2 (?) سبأ 46 .

لا يسـمع إلا دعـاء ونـداءً صم بكم عمي فهم لا يعقلون) [1] .

فالله يشبههم بالأنعـام الـتي تسـمع صـوت المنـادي، ولا تفقه ما يقـول، كل هـذا بسـبب جمـودهم على ما هم عليـه، وتعطيل عقـولهم عن التفكر لتبحث عن الحق فتتبعه، فكان نتيجة اهدارهم هذه النعمة التي تميزوا بها عن البهائم أن أصـبحوا مثلها ، بل أحط منـــزلة (**إن شر الـــدواب عند الله الصم البكم الـــذين لا يعقلون)** [2] .

VIII- بيان عظيم ثمرات استخدام العقل :

وقد بين القـرآن أن من أبـرز النتـائج الـتي يحصل عليها العقل المتجرد إذا تفكر وتدبر:

1- التوصل إلى الإيمـان بوحدانية الله ، والشـعور بعظمته سـبحانه، ومعرفة الحق الـذي خلقت به السـموات والأرض، يقـول سـبحانه (**إن في خلق السـموات والأرض واختلاف الليل والنهـار لآيات لأولي الألباب الذي يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنـوبهم ويتفكـرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار)** [3].

ولـذلك يعقب سـبحانه كثـيراً بعد ذكر آياته في الأنفس والآفـاق بقوله (**إن في ذلك لآيات لقوم يعقلـون**) – وكفى بهـذه النتيجة نفعاً وعظمة .

2- الثبات على الحق الذي توصل إليه، والاطمئنـان القلبي الذي يصاحبه، خلافـاً للـذي انعـدمت بصـيرته

---

1 (?) البقرة 170-171.

2 (?) الأنفال 22 .

3 (?) آل عمران 190-191 .

فهو في أمر مريج، لا يستقر على حال، ولا يطمئن إلى وجهة معينة، فهو مشتت تتنازعه الأهواء، يقول سبحانه (**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب**) [1].

هـ- حثه على العلم والمعرفة التي تقود الإنسان في حياته العملية خلافاً لما عليه الجهلة:

ولقد أثنى الله سبحانه على العلماء ورفع مقامهم، فقرنهم سبحانه بذكره حينما قال (**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم**) [2].

وقال سبحانه (**إنما يخشى الله من عباده العلماءُ**) [3] .

وقال سبحانه (**يرفع الله الذي آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**)[4] .

وحث العلماء على إشاعة المعرفة بين الناس، وتعليمهم الحق (**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**) [5] .

XXVII- الحث على تحريك العقل، واستثارة طاقاته في كل وقت، وعلى كل حالة بشتى الأساليب : (**قل**

---

1 (?) الرعد 19 .
2 (?) آل عمران 18 .
3 (?) فاطر من آية 28 .
4 (?) المجادلة من آية 11 .
5 (?) البقرة 159-160 .

انظروا ماذا في السـموات والأرض) [6] **(أولم يتفكروا في أنفسـهم)** [2] **(أولم ينظـروا في ملكوت السـموات والأرض وما خلق الله من شيء...)**[3] الآية .

2) موافقة الإســلام للفطــرة وإقناعه للعقل :

خلق الله الإنسان على هيئة خاصة به لا يشترك فيها معه شيء من مخلوقـات الله –(فجـاء فـذاً في هذا الكون، إن في تكوينه العضـوي، أو في خاصـيته الجوهرية- التي هي التفكير العقلي) [4] .

ومن مميزات فردية هذا الإنسان أن الهيئة التي فطر عليها معجزة حـيرت العلم القـديم والحـديث " حيث تمتزج الفرديات العقلية، والتركيبية والأخلاطية بطريقة غير معروفة للإنسان"[5] .

كــذلك فــإن مما لاحظه علم الإنســان أن هــذا المخلوق يشتمل على عوالم متفردة متعـددة بتعـدد أفراده، فكل فرد له خاصية لا يشاركه فيها غيره من بني البشر "كل فرد يدرك أنه فريد، وهذه الوحدانية حقيقية"[6] .

ولقد قرر القرآن الكريم من قبل هذه الحقيقـة، حقيقة تفرد الإنسان في خلقه وطبيعته ووظيفته:

---

1 (?) يونس من 101 .
2 (?) الروم من 8 .
3 (?) الأعراف من 185 .
4 (?) الإنسـان في العـالم الحـديث – جوليـان هكسـلي نقلاً عن الإسـلام ومشكلات الحضارة – سيد قطب /(39).
5 (?) الإنسان ذلك المجهول (287) .
6 (?) المصدر السابق (289) .

(**وإذ قـــال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**) [1].

(**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقنـاهم من الطيبـات وفضـلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً**) [2] .

(**لقد خلقنا الإنسـان في أحسن تقـويم**) [3] .

والإنسان بهذه الطبيعة الخاصة التي فطر عليها ، والسنن الـتي قـام عليها وجـوده يحتـاج إلى نظـام حياة خاص به يتسق مع ما فطر عليه، ويراعي هـذه السنن فلا يصطدم معها .

وهنا تبـدو مـيزة كـبرى للإسـلام عن غـيره من المـذاهب باتسـاقه مع فطـرة الإنسـان وتكوينه العقلي، يقـول سـبحانه (**فـأقم وجهك للـدين حنيفاً فطرة الله الـتي فطر النـاس عليها ، لا تبـديل لخلق الله ذلك الـدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**) [4].

قال العلمـاء "الفطـرة هي الخلقة والهيئة الـتي في نفس الطفل، التي هي معدة، ومهيـأة لأن يمـيز بها مصنوعات الله ، ويسـتدل بها على ربـه، ويعـرف شرائعه ويؤمن به" [5].

والله سبحانه هو الذي خلق هـذا الإنسـان ، وهو أعلم بالسنن ، والأسرار التي خلقه عليها ، وقد أنزل له نظامـاً شـاملاً لجـوانب حياتـه، ومطابقـاً لهـذه الفطـرة وهو الإسـلام" إذ هو في سـننه وفروضه

---

1 (?) البقرة من آية 30 .

2 (?) الإسراء 70 .

3 (?) التين 4 .

4 (?) آية 30 الروم .

5 (?) الجامع لأحكام القرآن (7/29) .

وأحكامه ومبادئه يشمل الفطرة كلها ويطابقها تمام المطابقة" [1].

فالإنسان أي إنسان يحس بجوع روحي عارم، ولم تستطع فلسفة أو منهج بشري أن يسد هذا الجوع ، أما الإسلام فقد أشبع هذه الروح وسد هذه الجوعة وهذه حقيقة أقر بها حتى غير المسلمين، تقول الباحثة فاجليري (إن الناس ليشعرون بالحاجة إلى الدين، ولكنهم في الوقت نفسه يريدون منه أن يكون ديناً يفي بحاجاتهم، قريباً من مشاعرهم، يقدم الأمن والراحة للحياة الدنيا كما يقدمها للآخرة ، ويلبي الإسلام هذه الحاجات بدقة لأنه عقيدة وفلسفة للحياة، فهو يعلم التفكير الصحيح ، والتصرف السليم، والكلام الأمين ، ولذا يجد طريقه في غير صعوبة إلى كل من العقل والقلب الإنساني) [2].

ولعل من أبرز الجوانب التي جاء الإسلام بالقول الفصل فيها، وقد تاهت البشرية فيها، ولا تزال تائهة ضالة جانب تصور الكون المشهود وما وراءه .

ذلك أن هذا الكون من حولنا ينطوي في تضاعيفه على أسرار كبيرة في بدئه ومصيره، والهدف من ورائه، والعقل البشري طلعة يقف أمام المجهول ليستبين منه ما استطاع غير قانع بالعالم المحس ومظاهره الواضحة، ولقد جاء الإسلام يحل هذه الألغاز فأعطى تصوراً عن الكون والحياة وخالقهما – يلبي فطرة الإنسان، ويجد فيه العقل ما يشبع نهمته - .

---

1 (?) الإسلام في عصر العلم للغمراوي (23) .
2 (?) تفسير الإسلام لفاجليري (51) .

وقد تـوهم البعض أن العلم المـادي الـذي قفز قفزاته الكبيرة إبان نهضة الغرب المعاصرة، سيجهز على الدين تماماً ، ذلك أنه سيحل ألغاز الكـون كلها وسيكتشف مجهولاته جميعها، فعند ذاك ينطفئ ذلك الشـوق العقلي إلى ما وراء المجهـول ، وبـذا تـزول غريزة التدين .

ولكن العلم أثبت – واقعا- عكس هـذه النتيجـة، إذ كلما زاد ما يكتشفه العلم من دلائل عظمة الكون وامتـــداده كلما انفتح معه أفق أوسع للســـؤال عما يكتنفه من أسـرار وغـوامض " وأقـرب مثـال لـذلك الذرة التي كـانت إلى عهد قـريب متماثلة الأجـزاء ، فظهر أنها مركبة من نـوعين من الكهربـاء – سـالب وموجب- وأنه من الممكن تحطيمها وفصل أجزائهـا، فتعـود قـوة مجـردة – طاقة – تحتـاج إلى بحث عن مصدرها خارج هيكل الذرة المحطم[1] .

وهكذا يعود الإنسان بعد تطوافه في الكون أكثر تســاؤلاً عما يحيط به من رمــوز وأســرار ، ويبقى "الإسلام" الذي أنزله خـالق الكـون والحيـاة والعليم بهما هو الـذي يقـدم الحل النـاجع لهـذه المشـكلة، فيقنع العقل ويريحه من القلق والشـــقاء الـــذي يساوره أثناء وقوفه أمام هذه المجهولات.

3) محاربة الإسلام للخرافـات والعوامل التي تحطم العقل :

جــاء الإســلام والمجتمعــات البشــرية –خاصة العربية- تعج بأنواع الخرافات، والشـعوذة، والأوهـام الـتي اسـتعبدت عقـول النـاس، وتلاعبت بهـا، من كهانـة، وعيافـة، وعرافـة، وسـحر، واعتقـاد بتصـرف

---

1 (?) الدين لدراز (119) .

بعض المخلوقات في أجزاء من هذا الكون، كـالجن، والشياطين [1].

فحـارب الإسـلام هـذه الخرافـات، وحـرر العقل البشري من سيطرتها، وتلاعبها به ، جـاء في صـحيح مسـلم ((**من أتى عرافاً فسـأله عن شـيء لم تقبل له صـلاة أربعين ليلة**)) [2]. قـال العلمـاء : هو من يذهب إلى من يدعي معرفة الأمـور الغيبيـة، فيسأله على وجه التصديق لما يقول [3].

وقـال ((**لا عـدوى ولا طـيرة ولا هامة ولا صَفَر وفر من المجذوم فرارك من الأسد**)) [4] .

فقوله : لا عــدوى : نهي لهم عن الاعتقـاد بـأن المُعـدي يخلق العـدوى بالصـحيح كما كـان سـائداً عندهم.

ونهـــاهم عن التشـــاؤم بـــالطير، حيث كـــانوا ينصـرفون عن المضي في مقاصـدهم بسـبب اتجـاه الطير إلى الجهة المخالفة لاتجاههم، أو بسـبب نـوع الطير الذي يقابلهم فور خروجهم.

والهامة : البومـــة: وكـــانوا يتصـــورون أن من وقعت على داره، فإنها تنـــذره بمـــوت أحد أفـــراد عائلتـه- أو أن المقصـود ما كـانوا يتصـورونه من أن روح المقتول- تخـرج من القـبر وتصـيح مطالبة بأخذ الثأر من القاتل.

---

1 (?) ليس هـذا خاصـاً بالمجتمعـات القديمـة، فحـتى مجتمعـات القـرن العشرين –البعيدة عن هدى الله- ما تزال مرتعاً خصباً لهـذه الخرافـات مع بلوغها هذا الشأو البعيد في العلم المادي .

2 (?) صحيح مسلم، كتاب السلام ، حديث رقم 2230 جـ 4 .

3 (?) انظر مجموعة التوحيد 119 (قـرة عيـون الموحـدين شـرح كتـاب التوحيد) .

4 (?) صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب الجذام .

وصَفَر: هو الشهر المعروف، وكانوا يعتقدون أنه شهر دماء ، وقتل، فبين النبي أنه وقت كسائر الأوقات لا يقتضي بذاته شؤماً ولا ضرراً إلا ما يفعله الإنسان .

وفي حديث آخر عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله يقول: ((**إن الرقى والتمائم والِتَولة شرك**)) [1] .

التميمة : شيء يعلق على الأولاد يعتقدون أنه يدفع عنهم الشياطين.

والتولة: شيء يصنع، يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها .

عدا عن هذا فإن القرآن والسنة حينما يعرضان حوادث الطبيعة والكون فإنهما يبعدان الخرافات، ويربطان بين الحوادث ربطاً موضوعياً- بين المقدمات والنتائج، وبين الأسباب والمسببات -كما في قوله سبحانه (**الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله**) [2].

وعندما كسفت الشمس في عهد الرسول وذلك في اليوم الذي مات فيه (إبراهيم) ابن رسول الله ظن الناس أن كسوف الشمس كان بسبب موت إبراهيم ، ووصل هذا التعليل إلى النبي فقال ((**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته**))[3] .

---

1 (?) رواه أبو داود في كتاب الطب باب تعليق التمائم 4/112 ، وابن ماجه في نفس الكتاب والباب 7/1167 .

2 (?) الروم من آية 48 .

3 (?) صحيح البخاري ، كتاب الكسوف، الباب رقم 6 .